

نقد كارل ماركس لفلسفة الحق عند هيجل

أ. بوحفص فهيمة

أستاذة مساعدة أ/ قسم الفلسفة

جامعة الجزائر 2

الملخص

عرفت ألمانيا في القرن التاسع عشر تأخرا اقتصاديا وسياسيا، ويعتبر هيجل "حسب كارل ماركس" المسؤول عن هذا التأخر، لأنه قطع بمثاليته الصلة بين الفلسفة (الفكر) والواقع، الأمر الذي أدى بماركس إلى نقد فلسفته، وقلب مفاهيمها، من خلال تقديم شكل مغاير لعلاقة المجرّد بالمحسوس؛ الفكرة والواقع.

En XIXe siècle l'Allemagne à connu un retard économique et politique. **Hegel** est considéré comme responsable de ce retard selon **Karl Marx**, car il a séparé la philosophie (la pensée) du réel, en s'appuyant sur son idéalisme. Ce qu'il l'a amené à critiquer sa philosophie, en renversant ses concepts, a travers la présentation d'une différente forme concernant la relation entre le concret et l'abstrait ; l'idée et le réel.

بعدما حظرت الجريدة الريمانية **La Gazette de Rhénane** التي أسسها ماركس في ألمانيا سنة 1843 هاجر هذا الأخير إلى فرنسا، وخلال تواجده هناك درس تاريخ الثورة الفرنسية التي ظهرت سنة 1789 وانتهت بثورة 1830، والتي ضمنت للفرنسيين النصر النهائي على الملكية المطلقة، مما أدى بالبورجوازية الفرنسية إلى الإستلاء على الحكم. لقد كان للفرنسيين تقاليد ثورية قوية ووعي واضح بأهدافهم "لقد تيقن الفرنسيون أن المصالح العامة لا تتحقق إلا من خلال الثورة السياسية، وإعادة تشكيل الدولة"¹. ومثلما شهدت فرنسا تطور سياسيا، عرفت إنجلترا تطورا صناعيا يتمثل في ثورة صناعية التي حدثت في منتصف الثامن عشر من خلال اختراع الآلة البخارية و الآلات صناعة القطن². أما ألمانيا فهي متأخرة اقتصاديا إذ خرجت الصناعة فيها لتوها من الصناعة اليدوية ونظام المنيفاكثورة*، وسيطرت مالكي رؤوس الأموال الذي أدى إلى إفقار العمال³، نتج عنه بروز طبقتان متميزتان طبقة العمال الفقراء، وطبقة مالكي رؤوس الأموال الأغنياء. أما فكريا فقد كانت الدولة الألمانية تقمع الحريات؛ حرية التعبير من خلال فرض نظام الرقابة. وعلى المستوى السياسي، فلم تقم ألمانيا بأية ثورة، بل عرفت إصلاحين؛ ففي كل مرة تقوم فيها الشعوب المجاورة بالحرب (الثورة الفرنسية مثلا) يقوم حكام ألمانيا بالإصلاحات

لكن رغم تأخر ألمانيا واقعياً، إلا أنها كانت في مستوى الدول الحديثة فلسفياً، "إن فلسفة الحق والدولة الألمانية هي الفلسفة الألمانية الوحيدة، هي التاريخ الألماني الوحيد الذي يمكن اعتباره في مستوى الأحداث المعاصرة الحديثة"⁴. لقد أنشأ هيجل نظرية حول المجتمع المدني، وحول الفردانية التي تشكل أساسه، كما أن النقد النظري الذي توصل إليه أكتمل عملياً في فرنسا من خلال الثورة الفرنسية، لقد فكر في حدوث الثورة الفرنسية، وفيما سيحدث بعده الثورة، "لقد فكر الألمان فيما فعله الآخرون، فألمانيا كانت وعيهم النظري"⁵. إن فلسفة الحق الهيجلية توافق ما هو موجود في البلدان الأخرى، ولكنها لم تكن تعبر عن الواقع الألماني المتأخر.

لقد وعى ماركس أن هناك هوة بين الوعي والواقع (الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي) في ألمانيا؛ حيث يؤخذ الواقع كأنه أفكار، وتؤخذ الأفكار على أنها هي الواقع، إنها تعيش حاضرها في الفكر؛ في الفلسفة، "مثلما عاشت الشعوب السابقة تاريخهم المقبل عبر التخيل في "الأسطورة"، كذلك نحن الألمان نعيش تاريخنا المقبل في الفكر، في الفلسفة. نحن فلاسفة الحاضر، لكننا لسنا تاريخيين معاصرين"⁶.

إن الفلسفة الألمانية هي مصدر التغذية لما يسميه ماركس بـ "التاريخ الخيالي لألمانيا"، ولهذا فإن الأمة الألمانية مجبرة على ربط تاريخها الخيالي بظروفه الحاضرة، وتخضع للنقد، "فرغم أن ألمانيا هي دون مستوى أي نقد، ولكنها تبقى موضوع نقد، كالجرم الذي هو دون مستوى الإنسانية، ولكنه مع ذلك يبقى موضوع اهتمام الجلال"⁷. إن أفكار هيجل بالنسبة إلى ماركس مقلوبة تحجب الطبيعة الحقيقية للأشياء، ويتجلى هذا القلب في تحديد العلاقة بين الفكرة والواقع؛ بين المسند والمسند إليه.

بدأ نقد ماركس لهيجل بنقد كتاب **فلسفة الحق لهيجل**، وهو الكتاب الذي يشمل على مبادئ الفلسفة السياسية التي تدير وفقها الدولة الألمانية. ظهر هذا النقد في كتابه الذي يحمل عنوان **نقد لفلسفة الحق عند هيجل**، وقد كان أول عمل قام به ماركس من أجل الفصل في الشكوك التي بدأت تنتابه حول صحة أفكار هيجل. يعبر ماركس عن هذا بقوله: "وكان أول عمل قمت به من أجل فض الشكوك التي كانت تهاجمني، إجراء مراجعة نقدية لفلسفة الحق عند هيجل، وهو عمل ظهرت مقدمته عام 1844 في الحوليات الفرنسية-الألمانية، المنشور في باريس"⁸.

ألف ماركس كتاب نقد فلسفة الحق سنة 1843، ولكنه لم ينشر في حياته، بل ظل على شكل مخطوطة، إلى غاية 1927، لكن مقدمته نشرت في مجلة الحوليات الفرنسية-الألمانية تحت عنوان مقدمة لنقد فلسفة الحق عند هيجل، يرسل ماركس رسالة إلى زميله روج سنة 1842 قائلاً: "سوف أرسل للحوليات

الألمانية نقدا يتعلق بنقد فلسفة الحق الطبيعي لهيجل،... "9. عمد ماركس في كتابه نقد فلسفة الحق لهيجل إلى نقد كتاب فلسفة الحق لهيجل، نقدا مفصلا؛ حيث انتقده فقرة تلوى الأخرى.

ننطلق في عرضنا لنقد كارل ماركس من الفقرة "262"، التي يقول عنها: "كل السر الذي تحتويه فلسفة الحق وفلسفة هيجل عموما تحتوي في هذه الفقرة"¹⁰. يقول هيجل في الفقرة 262 من كتابه فلسفة الحق ما يلي "الفكرة الواقعية، العقل، تنشطر إلى المحيطين المثاليين لمفهومها: العائلة، والمجتمع المدني، اللذان يعبران عن طورها النهائي، وهي لا تفعل ذلك إلا لترفع بصفاتها المثالية، وتصبح واقعية مثل العقل الواقعي اللامتناهي في ذاته. تنشطر الفكرة إذن بين الأفراد الذين يكونون وسائل تحققها النهائي. يتعين انشطار الفكرة المطلقة في تأمل الفرد للظروف الخارجية أو لنزوته، أو لاختيار دوره في الحياة"¹¹.

يستهل ماركس نقد لهذه الفقرة بقوله "دعنا نترجم ذلك نثرا". وهذا إن دل على شيء إنه يدل على أن ماركس يتعامل مع أفكار هيجل بوصفها ضربا من النصوص الشعرية، شيئا يستلزم الترجمة، محاولا اختزال هذا التأمل إلى اللغة المتداولة "التجربة الاعتيادية" التي هي الواقع. إنه يبحث عن صحة الفكرة في التجربة الاعتيادية، التي تعبر عن ما موجود هنا فعلا، مقابل ما هو موجود هنا كفكر، الذي يعبر عن شيء ما غير الواقع، كما هو الحال عند هيجل، يقول ماركس: "لا يتم التعبير الفعلي بما هو عليه ولكن على أنه واقع آخر"¹². إن ما يسميه هيجل ب: الفكرة الواقعية؛ أي العقل بوصفه لا نهائيا وواقعيًا، يعمل وفق مبدأ

مقرر وباتجاه هدف مقرر¹³. إنها تشطر نفسها إلى محيطات متناهية، وهما العائلة و المجتمع. وتنتهي حركتها عندما تعود إلى نفسها في الدولة، ويعي المواطنون ذلك من خلال التأمل، فخضوع الأفراد لقوانين الدولة يعني أنهم يتلاءمون مع القانون الطبيعي الذي تسير وفقه عقولهم؛ قانون العقل الإنساني.

إن هذه الفكرة الفعلية، هي إسقاط لشيء يوجد في مكان مفارق، وهي العقل الفعلي اللامتناهي، أو "الروح"، ومن ثم فإن العائلة والمجتمع المدني تصبح مجرد أوعية أو مظاهر للفكرة؛ إنها تجسيدات لواقع غريب يوجد فوقنا. إن العائلة والمجتمع المدني هما افتراضان مسبقان للفكرة، فالفكرة بالنسبة لهيجل هي المسند أو الموضوع déterminant بينما العائلة والمجتمع يمثلان المسند إليه، أو المحمول.

و إذا جعل هيجل الفكرة هي المسند، فإن ما يسند إليها المجتمع المدني، العائلة، هي لحظات موضوعية للفكر وليست واقعية، ومن ثمة فليس للفكرة وجود غير ذاتها. أما العلاقة التي تربط بين الموضوع والمحمول أو المسند والمسند إليه فتتمثل عملية التحديد الذاتي التي تتم خلال التطور التي تقوم بها الفكرة.

يرى ماكس بأن العائلة والمجتمع المدني، هما القوتان النشيطتان فعليا وهما اللذان ينشئان الفكرة، أما الفكرة التي تطورت من ذاتها، فلا تملك وجودا خاصا، بل يكمن وجودها في الوجود الإعتيادي التجريبي، الذي يتمثل هنا في مجوع أفراد العائلة والمجتمع. ومن هنا

فإن هيجل، حسب ماركس، قلب القاعدة، والعلاقات الواقعية، واستبدلها بقاعدة وبالعلاقات وهمية، "فكل شئ مقلوب في الفلسفة التأملية"¹⁴. هذا هو القلب الذي يخفي الحقيقة منتجا الوعي الزائف، إنه نموذج الإيديولوجية "الوعي الزائف" الذي يعم فلسفة هيجل.

يقلب هيجل العلاقة بين الشكل والمحتوى، معتبرا أنه في دراسة أي نسق فلسفي يجب أن نميز بين الحركة المنطقية الداخلية للفكر، والشكل الذي يعبر عن هذا المحتوى. لقد اعتبر لا سيما على الصعيد المعرفي أو الأنطولوجي؛ بأن حركة الفكر؛ الفكرة، هي الحقيقة، أما الشكل فهو "الواقع التجريبي". لا تمثل الفكرة التي قال بها هيجل حسب ماركس الحقيقة ولكنها تظهر على أنها كناية عن حقيقة أخرى؛ فمن جهة نجد أن عالم التجربة الاعتيادية لا يخضع للقانون الذي يعبر عن أفكاره، بل يخضع لقانون غريب، لأن الدولة لا تجسد "الفكرة الفعلية" بل إن المواطنين يعيشون في ظل حكومات تملك الرقابة والتعذيب¹⁵ فالمحتوى مختلف تماما عما يظهره الشكل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن هذه الفكرة "الواقعية" لا تتجسد في حقيقة نابعة من ذاتها، بل تتجسد في العالم التجريبي.

لكن رغم التمييز الموجود بين الشكل والمحتوى حسب هيجل، إلا أنهما لا ينفصلان، فمن التفاهة حسب السؤال من المهم، الشكل أم المحتوى، إذ لا يمكن أن يوجد الشكل بدون محتوى، والعكس صحيح. إن الدولة حسب هيجل هي الفكر الحر، وهي التي تمثل المصلحة العامة¹⁶. وللمصلحة العامة كشكل محتوى يتمثل وجودها الواقعي، فتفصل بذلك المصالح العامة عن عالم التجريد، وتصبح مسألة متعلقة بالأفراد الواقعيين، ولكن وجود هذا المحتوى مشروط؛ بوجود في ذاته، ووجود لذاته، إذ يوجد وجودا موضوعيا ثم يوجد وجود ذاتيا. فالمصلحة العامة حسب هيجل هي الموضوع الذي يحتاج إلى الأفراد (المحمول) الذين يكونون شكلها، وبهذا تتشكل في ذاتها، وباتحاد المصالح العامة والأفراد تتكون، الوحدة بين المحتوى والشكل، وتصبح المصلحة العامة موجودة لذاتها على شكل فكرة.

لا يمكن، حسب ماركس، لهذا المحتوى الذي يتكلم عنه هيجل أن يجد شكلا، لأنه نتيجة لعملية تجريدية، وبالتالي ليس له وجودا واقعيًا، وبهذا فصل هيجل بين المحتوى والشكل. إن الشكل حسب ماركس لا يكون شكلا إلا إذا احتوى على محتوى واقعي¹⁷.

يعرف هيكل الدولة بأنها الجهاز الذي يتجلى في المؤسسة السياسية¹⁸، والفكرة هي الموضوع، والنظام السياسي هو المحمول، لقد استنتج هيكل الشيء من الفكرة ونقله إلى عالم التجريد. ذلك لأن الفكرة المجردة حسب هيكل هي الحقيقة التي لا توجد حقيقة غيرها، أما الملموس فيحمل طابعا وهميا، غير أن ماركس يرى أنه إذا كان الأمر كذلك فإنه لا توجد عند هيكل علاقة بين الفكرة المجردة والشيء الملموس، فالأمر يتعلق بالنسبة لهيكل بمسألة تطور مسار الفكرة، والفكرة المجردة المستقلة عن الشيء حسب ماركس ليست إلا وهما، ومن ثمة فإن العلاقة التي تربط بين الفكرة المجردة (الفكرة الجهاز) والشيء الملموس (النظام السياسي) هي علاقة وهمية.

لقد قلب هيكل العلاقة بين الموضوع ومحمول، فالموضوع بالنسبة له يتمثل في الفكرة المجردة التي أنتجت الأشياء الملموسة، أما الشيء الواقعي فيظهر كنتيجة، فالحقيقة عند هيكل مجردة، ومستقلة عن الأشياء، هذا هو الطابع الوهمي الذي تحمله فلسفة هيكل. إن الفكرة حسب ماركس تعكس جوهر الشيء الملموس، وهذا الانعكاس هو العلاقة التي تربط بين الفكرة والشيء، إن لهذه العلاقة وجود موضوعي. ولكن رغم كون للحقيقة وجود موضوعي، فماركس لا يرفض وجود حقيقة الفكرة المجردة، لأن الأمر يتعلق بالانتقال من الشيء الواقعي وموضوعاته، وليس الانتقال من فكرة مجردة إلى فكرة أخرى مجردة، ذلك الانتقال الذي تلعب فيه الفكرة المجردة دور المعجزة، فهو في الواقع ليس إلا انعكاسا للأشياء الواقعية. " لقد وضع (هيكل) في كل مكان "الفكرة"، على أنها الذات؛ الذات الواقعية"¹⁹، وبهذا كشف ماركس الطابع الوهمي الذي يربط بين الجوهر و العالم التجريبي؛ بين الفكرة والواقع. الموجود في الطابع التجريدي لفلسفة هيكل.

يوصل ماركس الاعتماد على فكرة القلب حين ينتقد فكرة اختيار الحاكم، إذ يرى أنه عندما يريد هيكل توضيح ضرورة وجود الملك، ينطلق من فكرة الموضوعية التي لا توجد إلا على شكل ذات، أو شخص. إن الموضوعية تتمثل في إسناد فكرة الإرادة (الشخصية) إلى الشخص، فالشخصية بالنسبة لهيكل هي الموضوع، والشخص هو المحمول، ففكرة الشخصية تتحد مع الشخصية التي هي الملك. ويترتب عن هذا أن الملك الذي هو تجسيد لفكرة الإرادة "الإرادة الحقيقية؛ أي الإرادة الفردية هي الحكم الملكي"²⁰، وبما أن الإرادة هي الملك، فإن الملك هو المقرر الوحيد في السلطة والسلطة تعمل ما تشاء، " لهذا لا يقول هيكل إرادة الملك هي القرار الأعلى، ولكنه يقول أن القرار الأعلى للإرادة هي الملك"²¹

بعدما انتقد ماركس علاقة الموضوع بالمحمول، ينتقل إلى نقد فكرة الحد الأوسط، تلك الفكرة التي يتجاوز من خلالها الفكر المتناقضات. يرى هيكل بأن الديالتيك هو تلك الطريقة التي يمر فيها الفكر من

تحديد إلى آخر بحيث تحمل تلك التحديدات نفيها في ذاتها. ويقوم الديالكتيك على كشف هذا التناقض الداخلي الذي يحمله الشيء، والذي سوف يؤدي إلى نفي الشيء و تجاوزه، والوصول إلى الوحدة، إذ أن النسق الهيجلي ككل يقوم على محاولة شرح حركة التطور و الانتقال من مستوى إلى مستوى من خلال تجاوز المتناقضات. يرى ماركس بأن قانون الوحدة، وصراع المتناقضات الذي قال به هيجل يشوه الحقيقة، ذلك لأن تطور الحقيقة بالنسبة لهيجل تكمن في معرفة الروح المطلق، ومن ثم فإن التناقضات تكون على مستوى الفكر، هذه هي الفكرة التي يتمحور عليها نسق هيجل. ففي فلسفة الحق يحاول هيجل إيجاد الحد الوسط le moyen terme لتجاوز التناقض القائم بين المجتمع المدني ككلي والنظام السياسي القائم على حكم الملكي (الفردى) من خلال افتراضه لحد وسط يتمثل في الهيئة التشريعية، التي تتكون من طبقة أو جماعة تمثل المجتمع المدني، وبهذا يكون قد ربط بين الكلي والجزئي، غير أن هذه الطبقة التي تمثل المجتمع المدني في الهيئة التشريعية، لا تربط بين الفرد (الجزئي) والنظام السياسي (الكلي) ولهذا نجد أن الحد الوسط يحتاج هو نفسه إلى حد وسط، وهكذا إلى مالا نهاية. يعود سبب خطأ هيجل بالنسبة إلى ماركس في أنه يحاول دائما التوفيق بين المتناقضات، في حين أن الأمر لا يتعلق بالتوفيق بين الأضداد بل في صراع الأضداد.²² استنتج ماركس بأن المؤسسات التي يقول عنها هيجل بأنها عقلية مسبقا، و بأنها تحقيق ذاتي للفكرة، إن هي إلا أفكار وهمية غرضها تبرير النظام البروسي لا غير.

يعمق ماركس نقده لفلسفة هيجل من خلال نقد كتاب هيجل الذي يحمل عنوان "فينومينولوجيا الروح"، ذلك الكتاب الذي يعوض فيه هيجل الإنسان بوعي الذات، والطبيعة بوعي الإنسان، و لخص الإنسان والطبيعة بتطور الروح. وقد قام ماركس بهذا النقد في "كتاب المخطوطات الاقتصادية-الفلسفية" سنة 1844، يقول ماركس: "تتجلى فريضة الأخيرة في البدء بالنسق الهيجلي،... البحث عن الفكرة في الواقع نفسه، تلك هي المواجهة مع "النسق". ومن خلالها أعيد الإنسجام بين الفكرة والواقع"²³.

تتميز فلسفة هيجل بأنها فلسفة نسقية حيث "دمج كل الميادين، الطبيعة، والثقافة، والعلم، والدين، والتاريخ، وعلم الوجود، والجمال، والمنطق في وحدة متكاملة، ويتجلى ذلك في "فينومينولوجيا الروح". وقد أعاد إنجلز تقديم هذا العمل في شكل موجز وأكثر وضوحا في كتابه "لودفينج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" سنة 1888. يشرح إنجلز سبب عودته إلى الموضوع الذي سبق لماركس أن تناوله في فترة شبابه قائلا: "...وقد مضى، منذ ذلك الحين، أكثر من أربعين عاما، ومات ماركس دون عن تتاح لأحدنا فرصة الرجوع على هذا الموضوع وكنا بيّنا رأينا، في مواضيع كثيرة، بخصوص علاقتنا مع هيجل، ولكننا لم نبين، ذلك، في أي موضوع، بصورة منظمة شاملة"²⁴. يرى هيجل "حسب إنجلز" "أن ما نعرفه

في العالم الواقعي المادي هو مضمونه الفكري، الذي يجعل منه تحقيقا متدرجا للفكرة المطلقة، هذه الفكرة التي وجدت في مكان ما منذ الأزل، وجودا مستقلا عنه، بل هي أسبق في وجودها منه. فمن البديهي أن يكون في إمكان الفكر معرفة المضمون الذي هو في الأصل مضمون فكري. ومن البديهي أيضا أن ما نريد البرهنة عليه محتوي إذ في المقدمات بصورة ضمنية، إذ توجد وحدة بين الفكر وهذا الوجود. إن العوامل المادية (الطبيعة والكائن) هي بالنسبة لهيكل أوجه مختلفة لاغتراب وعي الإنسانية، الذي يتجاوز عن طريق تحويله إلى "موضوع التفكير"؛ أي إلى تحديد "بسيط" لوعي الذات، فالطبيعة بالنسبة للتفكير تمثل ضياع ذاته، وهو يدركها كفكر مجرد خارج عنه، إن الفكر يمثل الجوهر و هو المسند والطبيعة أو الكائن فهو الظاهر وهو المسند إليه. يقول ماركس: "إن عملية التفكير، بالنسبة لهيكل، التي يقدمها تحت إسم الفكرة، هي مبدعة الواقع، الذي لا يشكل سوى مظهر لتجليها الخارجي".²⁵

يقلب هيكل في فلسفته برمتها العلاقات الواقعية التي تربط بين الفكر والكائن، وذلك من خلال عملية التحديد أو الإسناد، حيث يرى أن الوعي هو الذي يحدد الوجود، فالفكر حسب هيكل هو المسند، والكائن هو المسند إليه، وبهذا يقلب الذاتي إلى الموضوعي و الموضوعي إلى ذاتي. إن الفكر - حسب ماركس - مرتبط بالإنسان، فالوعي هو وعي الفرد؛ فإذا كان وعي الإنسان هو وعي الذات عند هيكل، فإن وعي الذات عند ماركس هو وعي الإنسان؛ إنه ذلك الإنسان بلحمه وعظمه، والذي يدخل مع الأفراد الآخرين عبر النشاط المادي في علاقات اجتماعية معينة، ذلك لأن الشرط الأساسي لكل تاريخ بشرية هو وجود كائنات بشرية الذين يبدأون في التميز عن الحيوانات عندما يشرعون في إنتاج شروط الوجودهم المادية، ويتعاون الأفراد يتشكل نمطا معيناً من التعاون أو مرحلة اجتماعية معينة. ولا يمثل هذا النمط من الإنتاج طريقة تحديد الحياة المادية للأفراد فحسب، بل يمثل نمط محدد "للفعل الإنساني"، يعبر من خلاله الأفراد على أسلوب حياتهم.

يجب أن ننطلق حسب ماركس من مقدمات واقعية وليست خيالية، يجب أن ننطلق من لأفراد الواقعيين في شروطهم المادية التي وجدوها قائمة سلفاً، وفي الشروط التي نتجت عن نشاطهم المادي. " فعلى النقيض من الفلسفة الألمانية التي تنزل من السماء إلى الأرض فالصعود يتم من الأرض إلى السماء ؛ بمعنى انه لا يجب أن ننطلق مما يكونه الأفراد من أفكار وتصورات عن أنفسهم ولا مما يكونه الغير عليهم ،لكي نصل إلى الأفراد الذين هم من لحم ودم ،بل يجب أن ننطلق من البشر الواقعيين، لا ننطلق من الوعي إلى الفرد بل من الفرد إلى الوعي، فالوعي هو وعي الفرد فقط "²⁶

يقدم هيغل الإنسان، على أنه "تعريف، تمثيل"؛ الإنسان الموضوعي l'etre objectif، لا يمثل هذا التعريف الإنسان فعليا وواقعيًا، لأنه ليس أكثر من مجرد تمثيل بسيط؛ أي نسخة عن الشيء، أو صورته، وليس الشيء نفسه. بينما الإنسان الواقعي عند ماركس، مستثنى من كل تعال بغرض التوضع²⁷. أما إدراك هيغل للواقع على أنه اغتراب للفكر، فلا يعبر إلا عن عجزه عن مواجهة هذا الواقع، وتفضليه للفرار من مشكل بدلا من حله.²⁸

يواصل ماركس نقده لفلسفة هيغل حول مسألة الوحدة وتجاوز المتناقضات التي هي بالنسبة له عملية تجريدية تحدث على مستوى الفكر، وبطبيعة الحال فالفكر هو المنتصر في آخر المطاف. يؤلف هيغل في الديالكتيك بين ثنائية الفكر و الإنسان، أو فكرة التعارض بين الشكل والمحتوى، مكونا وحدة بينهما. لكن تلك الوحدة لم تكن إلا على مستوى الفكر فحسب؛ فإذا كانت الشخصية بالنسبة لهيغل l'identité تتعلق بعلاقة الفكر بالإنسان، فإن الفكرة هي التي يمكنها وحدها ان تعي الحقيقة، ولا وجود لحقيقة خارجة عنها.²⁹

إن الإنسان هنا "ممتص" absorbé من قبل الفكر، فلا يوجد تعارض بين الفكر والإنسان، كما لا توجد وحدة حقيقية بينهما، فالفكرة وحدها هي الحقيقة، لأن إقصاء الإنسان يقضي على التعارض. و يتم تجاوز الاغتراب على شكل مجرد؛ على مستوى الوعي لأن الفيلسوف، هو إنسان مفكر، مغترب، موجود في العالم الحسي الذي يجب عليه تجاوزه عن طريق النقد؛ النقد المجرد. وبهذا يتحلل الخصم في الفكر الخالص، دون محاولة تغيير فعلية، هذا ما يجعل النشاط الإنساني يظهر بالضرورة على شكل نشاط غير ناتج شيء سوى عن الفكر. ومن خلال تجاوز الاغترابات المتتالية، تتكون الحقيقة التي تثري وعي الإنسان عبر المراحل المختلفة، فالحقيقة ليست إلا حقيقة فكرية؛ الحقيقة التي تثري الوعي - الروح - وليس الإنسان. يعبر ماركس عن هذا في المخطوطات الاقتصادية و الفلسفية التي كتبها سنة 1844 بقوله: "تنطلق موسوعة هيغل، من المنطق، أي من الفكر النظري الخالص، وتنتهي في الفكر الذي يعي نفسه" وعن الفكر الفلسفي يقول: "...ويعتبر الفكر الفلسفي فيها كفكر مطلق، فكر يفكر في ذاته، أي فكر فوق الإنساني". إنها "ليست أكثر من عرض لإغتراب للفكر الفلسفي، الذي يفكر في إطار إغتراب ذاته، وأن الروح الفلسفي ليست أكثر من فكر العالم المغترب الذي يفكر في اغترابه الذاتي؛ أي أنه يدرك نفسه بطريقة تجريدية"³⁰.

ويمثل التاريخ حسب هيغل تطور المعرفة الذاتية لهذا الفكر، والبشر هم مادة هذه الحركة، فالفيلسوف هو الهيكل الذي يظهر فيه الروح (الفكر) المطلق الذي تطور في التاريخ بعد اكتماله، أي أنه تطور في لاوعيه، فهو لا يعتبر الكائن الفاعل في التاريخ، بل ينحصر دوره في تحليل تطور الأفكار و تقديمها

على شكل أفكار تأملية فلسفية، إنه ذلك الشخص الذي يصل متأخراً؛ بعد انتهاء الحفلة post festum . يقول ماركس: "لقد فهمنا ونحن نعتز أنه ما من ساعدنا على هذا الفهم أكثر من هيجل أن مهمة الفلسفة ليست سوى أن يقوم فرد واحد بتحقيق ما قد تحققه الإنسانية بأسرها في تطورها المستمر. ما أن نفهم هذا تنتهي الفلسفة³¹. فالحقيقة في رأي هيجل ليست مجموعة إلا من المبادئ اليقينية الجاهزة التي لا يبقى لنا إلا حفظها على ظهر قلب، بل أن الحقيقة هي المعرفة ذاتها، التي تتجلى التطور التاريخي الذي اجتازه العلم، هذا الأخير الذي يرتقي من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا حتى يصل إلى الحقيقة المطلقة المزعومة؛ إلى النقطة التي لا يعود في إمكانه التقدم بعدها، ولا يبقى له عند إذن شيء يفعلهُ سوى التأمل في هذه الحقيقة. فقد عرّف هيجل الوجود والفكر، وقاده هذه الفكرة إلى متابعة تاريخ الفكرة المطلقة التي تتجه من الفكرة إلى الواقع لتحده، وتحولت الممارسة الإنسانية إلى محض ظهور للتطور النهائي لهذه الفكرة، وهذا ما جعل النشاط الإنساني يظهر بالضرورة كنشاط ليس ناتج عن شيء سوى ذاته.³²

رغم أن هيجل يزعم أن الحقيقة المطلقة، ليست سوى التطور المنطقي؛ أي التطور التاريخي، إلا أنه ملزماً إلى أن يخلص بمذهبه إلى نهاية ما؛ ففي المنطق يستطيع أن يجعل لهذه النهاية بداية جديدة، فبعدما اغتربت الفكرة المطلقة في الطبيعة، تعود إلى العقل esprit؛ أي في الفكر وفي التاريخ، لكن العودة إلى نقطة الانطلاق في نهاية الفلسفة مستحيلة، إلا في حالة واحدة؛ عندما نفترض أن الإنسانية تعي مسبقاً غاية هذه الفكرة المطلقة، وهذا ما قد تم بلوغه في فلسفة هيجل، وهنا ينتهي الديالكتيك³³. فإذا كانت حركة الفكر بالنسبة لهيجل تتمثل في الفكرة، التي هي الذات المستقلة، وهي التي تخلق الحقيقة التي تمثل شكلها الظاهري، فإن حركة الفكر بالنسبة لماركس هي التي تعكس الواقع في دماغ البشر. فالفكرة لا تنشئ الفعل، ولكن الفعل هو الذي يولد الفكرة "لا يجب أن نقيس حقيقة الفكرة، بل نشرح الفكرة بالفعل". و"بين الفكرة والفعل يوجد الإنسان"³⁴. ولكي نعي الحقيقة يجب أن ندخل الديالكتيك في مجال الحياة، فيصبح هذا الأخير علم قوانين العامة للحركة—سواء كانت حركة العالم الخارجي، أو حركة الفكر الإنساني—وهو لا يمثل سوى مجرد انعكاس واع للحركة الديالكتيكية المتعلقة بالواقع.

فلا يجب النظر إلى العالم كمركب من الأشياء التامة، بل كمركب من عمليات تمر فيها الأشياء التي تبدو ثابتة في الظاهر، وكذلك صورها الذهنية في دماغنا؛ أي الأفكار؛ بسلسلة من التغير المتصل من الصيرورة والزوال. فإذا استوحينا باستمرار وجهة النظر هذه في أبحاثنا، فإننا نكف دفعة واحدة عن طلب الحلول النهائية والحقائق المطلقة، إذ يظل الإنسان واعياً بضرورة كل معرفة مكتسبة، وارتباط هذه المعرفة بالظروف التي تم اكتسابها فيها.³⁵ وهكذا وضع ماركس ديالكتيك هيجل على قدميه بعد ما كان واقفاً على

رأسه. يلخص ماركس هذا في قوله: إن طريقتي الجدلية لا تختلف في الجوهر عن فلسفة هيغل، بل هي نقيضها المباشر، إن عملية الفكر عند هيغل التي يجعل منها موضوعا مستقلا تحت إسم الفكرة، هي خالقة الواقع، هذا الذي لا يزيد عن كونه الظاهر الخارجي لها. أما عندي فإن عالم الفكر ليس سوى العالم المادي، منقولاً ومترجماً في الفكر الإنساني³⁶

يرى ماركس أن أفكار هيغل تقود ضرورة إلى تجاوزها، من أجل المحافظة على عمادها المتمثل في الجدل، "تجاوز فلسفة هيغل يمثل ضرورة إذا أردنا المحافظة على الجدل"³⁷. فبناءً على الجدل القائم على مقولة نفي النفي يصبح تجاوز الوحدة "الشكلية" التي قال بها هيغل بين الفكر والإنسان؛ بين الذات والموضوع، ضرورة لا بد منها. فبناءً على فكرة الفكرة المطلقة التي تستمر في التطور إلى أن تعي نفسها في فلسفة هيغل، التي تصبح هي ذاتها الفكر المطلق، فإن هذا يؤدي إلى توقف تطور المعرفة، وتوقف الجدل أيضاً. وللمحافظة على هذا الأخير يجب تجاوز النسق الهيجلي، الذي ليس في هذه المرحلة، إلا مرحلة ضرورية يجب تجاوزها. إن فلسفة هيغل تحمل في أحشائها بذور فنائها.

تقلب فلسفة هيغل العلاقات الواقعية، من خلال عملية التحديد، حيث يصبح السبب نتيجة، الذي يحدد المحدد، وننزل من السماء إلى الأرض مدعية أن الوعي هو الذي يحدد الحياة³⁸. إن هذا النمط من هذه الأفكار حسب ماركس يقدم حقيقة البشر وطبيعة العلاقات التي تربط فيما بينهم بطريقة مقلوبة حيث وضعت الرأس في الأسفل، ويقلب الذاتي إلى موضوعي. "هذه هي حقيقة البشر وحقيقة علاقاتهم لكن الإيديولوجية تقدمهم بطريقة مقلوبة حيث وضع الرأس في الأسفل مثل ما نرى الصورة حين نلتقطها في غرفة مظلمة، لكن هذا القلب لن يدوم بل سوف يعدل، وتصحح الأفكار حين يصل التطور التاريخي إلى مرحلة معينة، مثل ما يحدث في العين حين تلتقط الصورة لأول حيث تكون الصورة في الوهلة الأولى مقلوبة على مستوى الشبكية ثم تعدل بفضل تطورات فيزيائية.³⁹

1. Auguste Cornu : **Karl Marx et Friedrich Engels, Marx A Paris**, (Tome 3, Paris, PU F) p.183
2. Friedrich Engels : **La situation de la classe laborieuse en Angleterre**, (Traduction, Gilbert Badia et Jean Friedrich, Editions : sociales, Paris, 1960) « introduction »
- المانيفاكتورة la manufacture، تمثل مرحلة انتقالية بين ورشة الحرفي، والصناعة الكبيرة، إنها معمل يتألف من مجموعة من عمال يشتغلون فرادى، تحت إدارة مالك المعمل.
3. Karl Marx : « pour une critique de philosophie du droit de Hegel », dans, Karl Marx : philosophie, traduction : Maximilien Rubel, (Paris, Gallimard, 1965), p97
4. ibid, p.97.
5. Ibid.p.99
6. ibid, p.96
7. Ibid. p.92
8. Karl Marx : Contribution à la critique de l'économie politique, Karl, traduction, Guillaume Fondu, et Jean Quétier,(Editions, Sociales, Paris,2014), p p.62.
9. Marx,Engels :correspondances,Tome1,traduction :GilbertBadia,etJean Mortier,(Paris, Editions sociales,1971),p 244.
- 10.Karl Marx : Critique du droit politique Hégélien(Manuscrit de 1842-1843), traduction : kostas Papaioannou, (Paris, Edition :Allia,2010)p.47
- 11.Ibid. p.43
- 12.ibid, p.46.
- 13.ibid, p. 45.
- 14.ibid, p. 45.
15. بول ريكور:محاضرات في الإيديولوجية و اليوتوبيا، ترجمة:فلاح رحيم،(لبنان،دار الكتاب الجديد المتحدة،سنة2002)،ص 80
- 16.Karl Marx : Critique du droit politique Hégélien, Op.cit, p55.
- 17.O. Bakouradze : « Formation des idées philosophiques », dans, sur le jeune Marx, (recherches internationales à la lumière du marxisme , Cahier 19, Paris , Editions :La nouvelle Critique, 1960) p25
- 18.Karl Marx : Critique du droit politique Hégélien, op.cit, p4 6.

19. ibid, p.49.

20. Ibid, p.62.

21. Georgy Luckas : Le jeune Marx, traduction : Pierre Rush,(Paris, Les éditions : de la passion,2002), p48

22. BAKOURADZE : Formations des idées Philosophiques, op.cit, p.28.

23. Karl Marx : Lettre à son père, Berlin, 10 novembre 1837,dans, Karl Marx :Philosophie, op.cit,p II

24. فريدريك إنجلز:لودفينج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية،(ترجمة فؤاد أيوب،سوريا،دار دمشق،بدون سنة) مقدمة المترجم،ص30.

25. Karl Marx :Le capital, traduction :Maximilien Rubel, Livre1, (France, éditions Gallimard,2008),p106

26. Karl Marx, Friedrich Engels : L'idéologie Allemande, première partie, Feuerbach , traduction :Renée Cartelle et Gilbert Badia , (Paris, Editions :Sociales,1972) p.51.

27. Michel Henri : une philosophie de la réalité,(France, Gallimard,1991), p.371

28. Calvez Jean-yves :La pensée de Karl Marx, (Paris, éditions, Seuil,1970),p.130.

29. Franz jakubawsky :les super structures idéologiques de la conception matérialiste de l'histoire, traduction :jean- Marie Brohma, (Paris, édition, Etudes documentations internationales,1971),p.67.

30. Karl Marx : Manuscrits économique-politique de 1844, op.cit,p 160

31. فريدريك إنجلز:لودفينج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية،المرجع السابق،ص، 43

32. رمضان الصباغ:الفن و الإيديولوجية،الطبعة الأولى،(الإسكندرية،دار الوفاء لدنيا الطباعة و للنشر 2005)،ص 11

33. فريدريك إنجلز: لودفينج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، المرجع السابق،ص 38

34. Jaque Ellul : la pensée marxiste,(table ronde, France,2003) p.37

35. فريدريك إنجلز: لودفينج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، المرجع السابق،ص 80

36. Karl Marx :Le capital, op.cit,postface de la seconde, édition allemande, p.107.

37. Franz Jakubawsky : les super structures idéologiques de la conception matérialiste de l'histoire, op.cit,p.68.

38. Karl Marx, Friedrich Engels : L'idéologie Allemande, op.cit p.51

39. Ibid,p.51